المبحث الرابع

العاهة والسخرية

تعدّ السخرية من الموضوعات التي جذبت اهتمام كثير من الكُتّاب والأدباء والفلاسفة، لأهمية الفكاهة في التعبير عن الأوضاع السائدة في المجتمع والتعبير عن أفكار الناس وقيمهم وآرائهم[1]، لذا يجب أن تنظم السخرية بأسلوب بسيط واضح ليسهل فهمها من الآخرين، ليكون وقعها في النفوس أشد وأثرها أبعد. وقد تعتمد اللوحات (الكاريكاتيرية) القائمة على تضخيم الأشياء أو إبداء التناقض فيها وتجسيمه لتثير الضحك[2].

ويعد البعض السخرية: (وسيلة ينفس فيها المرء عن بعض ما يحمله من الأعباء، والمتاعب بغية استرداد عافيته)[3].

وتشمل السخرية، الفكاهة والتهكم والهجاء، واللذع، والدعابة، والمزاح، والهزل، والنكتة، وبسبب هذا التنوع وهذا التعدد كان من الصعب وضع تعريف دقيق لهذه الكلمة، (حتى إن كاتب مادة فكاهة Humour في دائرة المعارف البريطانية قال: إن الفكاهة اصطلاح من الصعب تعريفه، بل إنه يعد من النقص في روح الفكاهة أن نبحث عن تعريف للفكاهة)[4].

والواقع أن السخرية تعد أرقى أنواع الفكاهة، إذ إنَّها تحتاج إلى خفاء، ودهاء ومكر، وهي السلاح الذي يستخدمه الساسة للتندر بخصومهم والكيد لهم، كما أنها

(1) ينظر: السخرية في الأدب العربي الحديث (عبد العزيز البشري نموذجاً)، الدكتورة سها عبد الستار السطوحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، 2007م: 35.
(2) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: 244.
(3) الفكاهة في الأدب العربي، الدكتور أحمد محمد الحوفي، مطبعة أحمد علي مخيمر – مصر، 1967م: 36.
(4) السخرية في الأدب العربي الحديث (عبد العزيز البشري نموذجاً): 36، وتنظر: دائرة المعارف البرطانية.

الأداة التي يستخدمها الكُتَّاب والشعراء والفلاسفة لبيان رأيهم في الخرافات السائدة والمعتقدات الخاطئة التي يختلفون معها[1].

وتختلف بواعث السخرية، وغاياتها عند الأشخاص، والجماعات، ولكن العامل المشترك الذي يوحدها – باعثاً – وجود الانحرافات الفردية، والاجتماعية وتفشي مظاهر الفساد، والقهر، والنقص، مما يجعل السخرية مؤهلة للقيام بالواجبات الآتية: تقوية الذات الساخرة، والإصلاح، والتقويم، والجزاء، وتهوين شأن المسخور منه[2].

إن للبشر في مواجهة مواقف الحياة أساليب شتى ومواقف عدة، فالبعض يواجهها بشجاعة، وغيرهم يهرب منها بلباقة. وقد يواجهها البعض بشيء من الجدّ، يكثر أو يقل تبعاً لأهمية المشكلة، أو الموقف الذي يواجهه، وقد تكون المواجهة ببعض الهزل، أو بقليل من السخرية[3].

من هذا كله فقد وجدتُ – كما وجد الدكتور عدنان عبيد العلي من قبلي – أنَّ السخرية عند الشاعر المكفوف في الأندلس، تعود في الغالب إلى سببين رئيسين هما: كف البصر، وسوء التكيف الاجتماعي[4].

(وليس هناك عجز جسمي يعطي صاحبه حصانة ضد القصاص مثل فقدان البصر وهذا يمكن أن يكون جهازاً داخلياً كاملاً للدفاع ضد أي شعور بالنقص)[5].

(1) ينظر: السخرية في الأدب العربي الحديث (عبد العزيز البشري نموذجاً): 48.
(2) ينظر: شعر المكفوفين في العصر العباسي: 214.
(3) ينظر: السخرية في أدب الجاحظ، السيد عبد الحليم محمد حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان – ليبيا، ط1، 1988م: 5.
(4) ينظر: شعر المكفوفين في العصر العباسي: 219.
(5) تكيف الكفيف: 258.

إنَّ العاهة تثير في نفس الشاعر المكفوف شعوراً بالنقص، تدفعه إلى الثورة على المجتمع والتمرد عليه. وتبدو مظاهر هذا التمرد في صور الهجاء، والسخرية والنقد[1].

إنَّ العاهة لها أثر كبير في نفسية المكفوف (لأنَّ كف البصر يبعث في ذات الكفيف طول التأمل، ويصغر في نفسه ما يراه الناس كبيراً، فيستعلي على الحوادث بالسخرية منها، أو لأنه يرى بفكره، ومن طبيعة هذه الرؤية – حين تفقد الرؤية العيانية الواقعية – الاستعلاء، والشعور بالتفوق، أو الشعور بالنقص، والاضطهاد حيناً آخر. وكلاهما باعثان على السخرية، والاستخفاف، لما تبعثه السخرية في نفس الساخر من شعور بالتفوق والاستعلاء، وما تفعله من تخفيف شعوره بالآلام، والتهوين من حملها)[2]، وقد لاحظ الباحثون في هذا المجال أن المستضعفين – كالمكفوفين – يلجئون إلى السخرية ويعتصمون بها؛ لأنها الثأر السلمي العادل الذي لا يمتلكون أمضى منه في الدفاع عن أنفسهم من قهر المجتمع ومن العاهة[3].

أمّا سوء التكيف الاجتماعي، فقد عاناه المكفوف كما عانى الاضطهاد، أو الشعور به، فهو يرهق الإنسان؛ لأنه يخلق قلقاً، وتوقعاً دائماً للخطر[4].

إنَّ تناقضات الحياة تثير بعض المرارة، فتكون السخرية مرة أيضاً دون أنْ تفسد المرارة جوها المألوف، ومن هذا النوع بعض مواقف السخرية من النفس، فإنها لا تكون دائماً مشبعة بروح الفكاهة، بل إنها تكون بمثابة تنفيس للكرب الكثيرة التي يكابدها المكفوف[5].

(1) ينظر: شعر المكفوفين في العصر العباسي: 220.
(2) شعر المكفوفين في العصر العباسي: 221 – 222.
(3) ينظر: سيكلوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة – القاهرة، (د. ت): 74.
(4) ينظر: التخلف الاجتماعي – دراسة في سيكولوجية الطفل الإنسان المقهور - ، د. مصطفى حجازي، معهد الاتحاد العربي – بيروت، 1976م: 74.
(5) ينظر: السخرية في أدب المازني، د. حامد عبده الهوال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982م: 8.

ومن الأسباب الأخرى التي قادت الشاعر المكفوف إلى السخرية إثبات وجوده في المجتمع الذي يحس فيه المكفوف بأنه يريد تجاهله، لذا (يخضع للنزوع اللاشعوري من حيث كونه قوة دافعه لرغباته الطموحة إلى مبدأ إرادة التفوق في محاولة إثبات الذات وتأكيد الوجود)[1].

حتى إن النكتة تكون في بعض الأحيان ما هي إلا تعبير رمزي عن العدوانية التي تعتمل في الإنسان المقهور حين يستحيل التعبير المباشر، فهي نوع من قلب الأدوار الوهمي، إذ يضحك المقهور ضحكة النصر التي تقوم بالتفريج، وتصريف الكراهية[2].

وقد أحسَّ الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بهذه السخرية حين قال أبو المخشي[3] (ت 180هـ) فيه: **(من الوافر)**

ولـيس كمثـل مـن إن سـيم عُرْفـاً يقلّـب مقلـةً فيهـا اعـورارُ[4]

وكان هشام أحول، فأمر به فقطع لسانه، وسملت عيناه[5].

وبما أنَّ الهجاء جزءٌ من السخرية، وهو رد فعل لموقف معين يتعرض له الشاعر، فقد تعرض أبو المخشي، حين كان الشعراء يطعنون عليه تدينه بالنصرانية،

(1) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي دراسة، الدكتور عبد الفتاح فيدوح، مطبعة اتحاد الكتّاب العرب – دمشق، ط1، 1992م: 68.
(2) ينظر: التخلف الاجتماعي – دراسة سيكولوجية الطفل الإنسان المقهور -: 264.
(3) أبو المخشي، عاصم بن زيد بن يحيى بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عدي بن زيد التميمي التميمي العبادي، وأبوه زيد هو الداخل من المشرق إلى الأندلس، كان شاعراً مطبوعاً من شعراء القرن الثاني الهجري وكان منقطعاً الى سليمان بن عبد الرحمن الداخل، فكان هشام بن عبد الرحمن يكرهه بسبب ذلك، واتهم أبو المخشي بأنه عرّض بهشام؛ لأنه كان أحول، فعمل هشام الحيلة حتى يمكن من أبي المخشي فامر بقطع لسانه وسمل عينيه، فصار أعمى. توفي سنة 180هـ. تنظر ترجمته: جذوة المقتبس: 389؛ بغية الملتمس: 491؛ المغرب: 2/ 123؛ الإحاطة: 4/ 195.
(4) المغرب: 2/ 124 ؛ الإحاطة: 4/ 196.
(5) الإحاطة: 4/ 196.

ولمـــــــــا قـــــــــال فيـــــــــه ابـــــــــن هبيـــــــــرة[1]:

(من الوافر)

أَقلفتُـــك التـــي قطعـــت بشـــوشٍ دعتـــك إلـــى هجـــائي وانتضـــالي[*][2]

فأجابه أبو المخشي بقوله: **(من الوافر)**

ســـألت وعنـــد أمـــك مـــن ختـــاني بيـــانٌ كـــان يشـــفي مـــن ســـؤالي[3]

هذا الهجاء مؤثر لا ريب؛ ولكن الشاعر المكفوف أراده سلاحاً إزاء الخصوم، لذا إن الناس تحاول أن تتقيه ما وسعها الجهد؛ لأنه سيبقى سبّة، يتعدى الموقف الآني إلى الأجيال المتعاقبة ويبقى أبد الدهر.

وأما ابن هذيل فلم يكثر من السخرية في شعره ولم أجد له غير هذه المقطوعة التي قالها في أحدب: **(من مجزوء الوافر)**

شـــكَا فـــي ظَهْـــرِهِ حَدَبـــهْ فَقُلـــتُ دَعُـــوهُ يـــا كَذَبَـــهْ

جـــرابٌ بـــين فخذيـــه تعلـــق صَـــيِّتَ الجَلَبـــه*

فألقـــاه علـــى كتفيـــه فَهْـــوَ عليـــه كالعَقَبـــهْ[4]

لا يخفى على أحد ما للأحدب من شكل يجذب الانتباه ويدعو إلى الاستعطاف أو السخرية أحياناً كما جاء في هذه المقطوعة فقد جمع ابن هذيل بين روح المرح والتسلية مبيناً لنا بذلك العطف والكره، وكأنه يريد التشويه والتسلية، لذا جاءت هذه

(1) عمر بن هبيرة بن سعد بن عديّ الفزاري ، أبو المثنى (ت نحو110هـ). الأعلام :5 /68

(*) قلفتك:الغرلَةُ التي تقطع عند الختان. الصحاح: قلف

(2) المغرب: 2/ 124.

(3) المغرب : 2/ 124.

(*) الجراب: وعاء... وقيل هو المزود، والجراب: وعاء الخصيتين. (لسان العرب: جرب)، صيّت الجلبة: واضح الصوت شديدة. (الصحاح: صوت).

(4) شعر يحيى بن هذيل: 72 – 73.

السخرية خالية من الضغينة والحقد، خالصة من الأنانية، بل إنه أراد إبراز مظهر الغرائز الاجتماعية، ومن بينها الضحك.

ومن تلك الأبيات التي خرجت إلى معنى الفكاهة ما قاله محمد بن عبد الله الناجحون الضرير[1] (ت 414هـ) في صبيان كان يعلمهم: **(من مجزوء الخفيف)**

يـــــا فــــــراخ المزابــــــلِ ونتـــــــــــاج الأراذلِ
أقـــــــرأوا لا قـــــــرأتم غيـــــر ســــحر وباطــــلِ
روَّح الله مــــــــــــنكم عــــاجلاً غيــــر آجــــل[2]

إن هذه الأبيات تبدو من القراءة الأولى إنَّه قالها لغرض الفكاهة، (والفكاهة بوصفها وسيلة نافعة للتهرب – وقتياً – من الآلام. وهذا دليل على انعدام التكيف الاجتماعي)[3]، مازجاً بين السخرية والدعابة.وأما الحصري فقد قال في هذا الباب:

(من الخفيف)

رابَـــه علَّتــــي ضَـــنىً فأتـــاني عائـــداً فـــي يـــدهِ لـــي يَاسَـــمِينُ
فتفاءلـــــت أنـــــه قـــــد تهـــدّى لهُزالــــي فقـــال لــــي ياســــمينُ[4]

يبدو أن الحصري قد تداعت عليه الفكاهة والمرح، على الرغم من حزنه وحرمانه مازجاً تلك الأحزان بالسخرية والفكاهة، إذ مثل جانب الحزن (رابه، علتي، هُزالي).ومثل جانب السخرية – السعادة – في (أتاني، عائداً، في يده لي ياسمين، فتفاءلت، تَهدَّى) فأكثر من هذه الألفاظ والمعاني التي ضمنها الفرح، عله يخرج من

---

(1) محمد بن عبد الله الناجحون، هو من أبناء قفصة، خرج منها صغيراً، وكان يسرد جميع ديوان أبي نواس، ويقرأ القرآن براويات، ولم يكن له صبر على النبيذ، وكان يعلم الصبيان. أطعم طعاماً فمات منه مبطوناً بالحضرة سنة أربع عشرة وأربعمائة مشرفاً على الستين. واتهم به جماعة ممن كان هجاهم.
تنظر ترجمته: نكت الهميان: 245؛ والوافي بالوفيات: 3/ 274.
(2) نكت الهميان: 245.
(3) سيكولوجية الفكاهة والضحك: 107 وينظر 71.
(4) أبو الحسن الحصري القيرواني: 115.

ظلمته وعاهته فينال الراحة والاستقرار. وقال في غلام اسمه هارون: **(من مجزوء الرمل)**

يـــا غـــزالاً فـــتن النـــا س بعينيـــــه فتونـــــا
أنـــت هــــاروت ولكــــن صـــحفوا تـــاءك نونـــا[1]

يخرج الحصري بهذه الصورة الفكاهية التي أراد بها صفة الجمال والسحر لصاحبه مستخدماً (هاروت) بدلاً من (هارون) لما لذلك من انبعاث الابتسامة ورسمها على وجه المتلقي في هذين البيتين.

فمن هاتين المقطوعتين يتضح أن مصدر الفكاهة اكتشاف السامع لمغالطة في منطق المتكلم يحاول أن يتستر بالتلاعب باللفظ والمعنى، وكلما كانت المغالطة قريبة في صورتها من الحقيقة كانت مفاجأة السامع عنيفة واستثارت هذه المفاجأة الرغبة في التفكه والضحك[2]. وقد سخر الحصري من حظه العاثر، مصوراً عاهته قرداً في في اشمئزاز الناس منه، لقوله: **(من الوافر)**

نصـبتُ الفـخَّ ثـم قعـدت عنـه بعيـداً كـي أرى فيـه فلاحـا
إذا قِـردِي مقـيمٌ عنـدَ رأسـي يقـول لمقـبلات الطيـر: حاحـا[3]

ويربط الحصري بين الحكمة وبين السخرية، وإن كانت هذه السخرية لا تضحك وانما تجعلنا نبتسم للصديق الخداع في قوله: **(من الكامل)**

كـم مـن خليـلٍ كـان عنـدي شـهدةً حتـى بلـوت المـرّ مـن أخلاقـه
كـالملح يحسـب سـكراً فـي لونـه أو حجمـه ويحـولُ عنـد مَذاقِـهِ[1]

---

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 115.
(2) ينظر: سيكولوجية الضحك، تأليف: احمد عطية الله، دار النهضة العربية، ط2، 1965م: 92.
(3) أبو الحسن الحصري القيرواني: 133.

لقد تبين من خلال قراءتي لسخرية الحصري أنه لا يرغب فيها ولا يكثر منها، بل انه حاول أن يبتعد عنها لولا هذه الأبيات التي قالها خوفاً أن يقع في هوة اليأس والقنوط إزاء مواقف الحياة ومشاكلها الصعبة؛ لكن تلك صفة المتبرم بالحياة الراغب عنها.

وأبو بكر المخزومي، بشار الأندلس انطباعاً ولسناً وأذاة، وهو الذي أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد، ولا يزال يتخبط الآفاق بعصاه، ويقع فيمن أطاعه أو عصاه[2] فقد سخر من نزهون[3]، (ت نحو 550هـ) في قوله:

(من الطويل)

على وجه نزهونٍ من الحسن مسحةٌ وإن كان قد أضحى من الصون عاريا
قواصدٌ نزهونٍ توارك غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا[4]

فقد استخدم المخزومي حواسه في سخريته واستهزائه من الشاعرة نزهون دون أن يعلم، عارضاً عاهته كاشفاً لها، فقد استعان بحاسة اللمس في حسن وجهها ونعومته إلا أنه استعان ببصيرته على طلعتها ونورها فوجدها عاريةً عن الصون، لأنه لا يرى إلا ظلاماً دامساً، كالمكفوفين من أقرانه.

ولم يكتفِ بذلك بل صب سخطه وكآبته على هذه الشاعرة التي عرض بها وقذفها في شعره، فقد قال: **(من المتقارب)**

ألا قُلْ لنَزْهُونةٍ ما لها تجرُّ من التيه أذيالها
ولو أبصَرَت... شمرت - كما عَوَّدتني – سِرْبالها[1]

(1) م. ن.
(2) المغرب: 1/ 228.
(3) نزهون بنت القلاعي، شاعرة ماجنة كثيرة النوادر.تنظر ترجمتها: تحفة القادم: 236، والمغرب: 2/ 121.
(4) تحفة القادم: 237؛ نفح الطيب: 1/ 192.

من الواضح على البيتين أنهما خرجا بديهياً دون تفكير سابق بالموقف، لما اعتاده المخزومي من سرعة الرد، وبديهية القول.

وعلى الرغم من خروج البيتين عن الذوق الخلقي، إلا أنهما أورثا الشاعر راحة نفسية مؤقتة فهو لم يكتفِ بالسخرية وحدها، وإنما عرضها للتهكم أيضاً[2].

إن الحالة النفسية والعاهة أثَّرتا في أبي بكر المخزومي بشكل سلبي إذ إنه حاول أن يريح نفسه بترك العنان للسانه، فـ (إذا فقد الإنسان الإيمان بالغير أو بالمجتمع أو بالحياة نفسها، ووجد أن كل محاولة في هذا السبيل تضيع هباء؛ أو إذا فقد الإنسان الأمل في إيمان الغير به أو اعتراف المجتمع برسالته وعزت عليه وسائل الدفاع فانه ينزع إلى سلاح التهكم)[3]، كما فعل شاعرنا المخزومي.

---

(1) نفح الطيب: 1/ 193. في البيت كلمة محذوفة لفحشها، وهناك نصوص شعرية للشاعر المخزومي آثارت حذفها لفحشها وإثباتها من دون ألفاظ الفحش يسئ إلى معنى النص ودلالته.

(2) إن السخرية التي دارت ما بين المخزومي ونزهون كثيرة، إذ تروي المصادر، أنها – نزهون – هي التي بدأت بالسخرية من المخزومي حين قال المخزومي عند دخوله غرناطة أيام ولاية أبي بكر ابن سعيد. ووجه له الوزير أبو بكر ابن سعيد عبداً صغيراً قادة فلما استقر به المجلس، وافعمته روائح النّدّ والعود والأزهار، وهزت عطفه قال:

دار السعيدي ذي أم دار ... ما تشتهي النفس فيها حاضرٌ داني
رضوان

إلى آخر الأبيات (نفح الطيب: 1/ 191).

فقالت نزهون بعد سماع الأبيات: (ولكن من يجيء من حصن المدوَّر – مدينة المخزومي – وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النعيم؟ فلما استوفت كلامها، تنحنح الأعمى، فقالت: ذبحة، فقال: من هذه الفاضلة؟ فقالت: عجوز مقام أمك...) (المغرب: 1/ 288؛ نفح الطيب: 1/ 192). فقالت فيه:

قل للوضيع مقالاً ... يُتلى إلى حين يُحشر
من المدَّر أنشئت ... ت... منه أعطر
حيث البداوة أمست ... في مشيها تتبختر
لذاك أمسيت صباً ... بكل شيء مدوّر

(نفح الطيب: 1/ 192)

فردَّ عليها بالبيتين التي ذكرتها: (ألا قل لنزهونةٍ مالها...)

(3) سيكولوجية الضحك: 137.

ويخرج المخزومي إلى باب الدعابة حين قال في رجل يطير لعابه حين يتكلم:

(من الكامل)

لا شـيء أشْـبَهُ مـن خسـيس طباعـه ... إن حُقّقـت بطبـاع أسـد المـاءِ
يمـتصُّ أفـواه... بفَقحـةٍ ... ويبثّهـا فـي أوجـه الجُلَسَـاءِ[1]

لقد ناسق المخزومي ما بين الدعابة والتهكم، إذ إن التهكم جاء في صدري البيتين والدعابة جاءت في عجزي البيتين كما يتضح فيهما وكأنه أراد أن يشكل ثنائية في ذلك، جاعلاً المسخور منه، وفي موقع إبراز عيوبه، والصفات الممقوتة فيه، وإبرازها بين الناس بأسلوب سهل وبصورة مجسمة، تبدو أكبر من حجمها الطبيعي حتى تثير الاستغراب والتندر[2].

ولم يترك المخزومي أحداً يسلم من سخريته، وهجائه، وفكاهته، إلاَّ وقد صب عليه ضيم عاهته، حتى يصل به إلى التهكم من الناس ظاناً بهم ظن السوء غاضباً عليهم، لقوله وهو يوصي أحد الناس:

(من الوافر)

ألا لا تـركنَّ إلـى فـلانٍ ... فتسـري منـه فـي ليـلِ السَّـلِيمِ
لئـيمٌ لـيس ينفـع فيـه لـؤمٌ ... يـروم وراثـه العـرق اللئـيمِ
إذا جرَّبتَـهُ يومـاً تـراهُ ... مضـاع الجـار مَمْطُـولَ الغـريمِ
وإن كشَّـفتَه لاقيـت منـه ... مَصُـون المـال مبـذولَ الحـريمِ[3]

إن وصية المخزومي لم تكن وصية خير كما هو معروف، بل هي نصيحة بالابتعاد عن ذلك الرجل، وإلا فسوف تبعد عنه بليلٍ من شدة لؤمه؛ لأنه ورث هذا اللؤم من الآباء والأجداد إذ ورثه كابراً عن كابر، واصفاً كل صفات اللؤم والحقارة

(1) زاد المسافر: 117. النقاط تدل على كلمة فاحشة.
(2) ينظر: القصص القرآني في شعر الأندلس، الدكتور أحمد حاجم الربيعي، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط1، 2001م: 189.
(3) المغرب: 1/ 229.

والدعارة فيه، فهو خائن للجار مماطل للدين، بخيل مبذول العرض، لم يترك شيئاً من مروءة الرجل إلاَّ وقد صبغها بسخطه وتهكمه.

إن المُنقِّب عن سخرية المخزومي وهجائه يتوصل إلى أنه أراد أن يسير على ما سار عليه الشعراء الساخرون من قبل أمثال الحطيئة وبشار بن برد، فقد جعل الأخير هجاءه موجعاً قاصداً به الإيلام؛ وذلك بأن يجرد مهجوه من الصفات النبيلة، ويجعل منه مجالاً للتصوير الباعث على السخرية والاستهزاء.

وها هو ذا المخزومي يهجو ابنه ساخراً منه – كما فعل الحطيئة فقد هجا حتى نفسه - [1] بقوله: **(من الكامل)**

الحق أبلجُ ليس أنت وحقّ من ... أحيا بك الأجلافَ ممَّن يُفلحُ
لا تهتدي بفضيلة لا ترعوي ... بملامةٍ لا أنت ممن يَصلحُ
يزداد عقلك ما كبرت تناقُصاً ... وتلجُّ في صَمَم إذا ما تُنصحُ
أكلٌ وسَلْحٌ كُلَّ حين لا تُرى ... لسواهما ما دُمتَ حيا تطمحُ[2]

يقدم المخزومي لابنه النصيحة التي خرجت إلى معنى السخرية والاستهزاء، ناقلاً لنا معاناته الأبوية، وشكوته التربوية، علَّه يُحرك مشاعر ابنه فتنقلب أعماله إلى الصلاح بهذا الاستفزاز الملحوظ فيكون في داخله شيء من النشاط للاستماع إلى نصح أبيه.

وقد يسخر الإنسان من نفسه أو من أهل بيته لينجو من حملة المجتمع عليه؛ وذلك حين يتنبه على عيب فيه أو في أهله، أو حين يشعر أن المجتمع متنبه لهذا العيب، وقد يسخر من نفسه أو من أهله حين يأتي بعمل يثير ضحكاً أو يبعث الآخرين على السخرية منه، فلا يشاء أن ينتظر حتى يحدث ذلك بل يبادر إلى السخرية من نفسه أو أهله ليمنع نفسه من أن يكون هدفاً للغير[3].

(1) ينظر: الشعر والشعراء، تأليف: أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276هـ)، دار دار الحديث – القاهرة، 2008م: 1/ 312.
(2) المغرب: 1/ 229.
(3) السخرية في أدب المازني: 32.

إن قدرة أبي بكر المخزومي التصويرية دعته إلى التعبير عن مزاجه وطبعه ونفسيته الساخرة التي لا يتملكها الإعجاب في شيء ولا يدانيها الرضا والقبول[1].

فمن خلال قراءتي لسخريته وتهكمه شعرت أن لسخريته وتهكمه أسباباً دعته لهذا الغرض والتمتع بها ومنها: كف بصره، وشعوره بالنقص، فقد جرهُ كف بصره إلى الثورة على المجتمع، فـ (لقد ضاعفت العاهة إرهاف الشاعر الكفيف، وحساسيته حيال ما يدور حوله فصارت استجابته، وردود فعله تحمل قدراً كبيراً من الشك، والحذر والترقب)[2].

ومنها تعرض الناس له وذكر عاهته، فضلاً عن ازدرائهم له وتحقيرهم له، ألم تقل نزهون في حقه: **(من المجتث)**

خُلِقْـــتَ أعمـــى ولكـــنْ تَهـــيمُ فـــي كـــلِّ أعـــورْ
جاوبـــتُ هجـــواً بهجـــو فقـــل لعنـــت مـــن اشـــعرْ
إن كنـــت فـــي الخَلْـــقِ أنثـــى فـــإنَّ شـــعري مـــذكَّرْ[3]

فهاج في نفسه السخط والسخرية من المجتمع ومن كل شيء، فلم يجد سلاحاً أقوى من لسانه فتضاعف ردّه بكلّ ما حمل من طاقة لغوية يصبها على من حاول إن يسخر منه أو قصر في حقه، فقد قال، عن بني سعيد[4]. **(من الكامل)**

الكامل)

لا ترجـــون بنـــي ســـعيدٍ للنـــدى فالظـــلُّ أفيـــد مـــنهم للســـائل
فلقـد مـررت علـى منـازلهم فمـا أبصـرت منهـا غيـر بعـد منـازل

(1) انظر: أثر كف البصر في شعر بشار بن برد، سهام كاظم جابر النجم، رسالة ماجستير، كلية الآداب – جامعة الكوفة، 1996م: 105.
(2) شعر المكفوفين في العصر العباسي: 224.
(3) المغرب: 1/ 228.
(4) بنو سعيد، وهو جد ابن سعيد، واسمه عبد الملك، فقد كان كثير الإحسان على المخزومي متحفظاً من لسانه، وبعد ذلك فما يسلم من ذاته. (المغرب: 1/ 230).

قـــومٌ مُصـــيبتهم بطلعـــة وافـــدٍ وســـرورهم أبـــداً بخيبـــة راحـــلِ[1]

لم تكن تلك الأبيات قد شفت غليله من بني سعيد بل انه تعدى ذلك إلى التهكم والاستهزاء، من موقفهم معه حين أشاد بنفسه وجعلهم كالحمير طالباً من الله سبحانه وتعالى. الخلاص منهم والابتعاد عنهم، بقوله: **(من الكامل)**

ابنـــي ســـعيدٍ قـــد شـــقيت بقـــربكم فلتتركـــوني حَيـــثُ شـــئتُ أســـيرُ
أفنـــي المـــدائحَ فـــيكم لا وعـــدُكم يُقضـــى، وقلبـــي فـــي المطـــال أســـيرُ
أعطيـتم نـزراً علـى طـول المَـدَى ويقـــولُ وغـــدٌ: إنـــه لكثيـــرُ
ولشـــدَّ مـــا عرضـــتموني للعَنَـــا فَـــرَسٌ عَتيـــق عاشـــرَتهُ حميـــرٌ
فـــإذا صَـــهَلْتُ إذا النُّهـــاق مُجـــاوِبي يـــا ربِّ أنـت علـى الخـلاص قـديرُ[2]

ومن أسباب سخريته، ورغبته بالتشفي من الناس، وحبه للمرح والنكتة وفي تصوره أن الناس يحفرون له ويكيدون، فلا بدَّ أن يُرهبهم ويخيفهم ليكون بعيداً عن شرورهم، فجعل من لسانه سيفاً على تصوره ذاك، من خلال فهمنا للحوار الدائر بينه وبين والد ابن سعيد الأندلسي، فقد قال له الأخير: (يا أبا بكر هلا اقتصرت على ما أنت بسبيله، فكم تقع في الناس ؟! فقال: أنا أعمى وهم لا يبرحون حفراً، فقال: والله لا كنت لك حفرةً أبداً)[3].

وقد ذهب ابن الفراء الخطيب[4]من فضلاء المائة السادسة إلى البدائه الظريفة الدالة على الفطنة واللوذعية على لسان محب وامق. قوله: **(من المتقارب)**

---

(1) المغرب: 1/ 231.
(2) المغرب: 1/ 231. وللمزيد من سخرية المخزومي. انظر: الخريدة: 4/ 2/ 154، 155، 668؛ زاد المسافر: 117، 118، 119؛ المغرب: 1/ 229، 230، 231.
(3) المغرب : 1/ 230؛ وينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: 245.
(4) أبو عبد الله محمد بن الفراء الخطيب الأعمى، إمام النحو واللغة في زمانه، وهو من فضلاء المائة السادسة، شاعر مجيد، كان يُعلم بالمرية القرآن والنحو واللغة، وكانت فيه فطنة ولوذعية، وذكاء وألمعيّة، خرق بها الفوائد. وجدَّه القاضي أبو عبد الله ابن الفراء مشهور

شـــكوتُ إليـــه بفـــرط الـــدَّنفْ(*) فـــأنكرَ مـــن قصـــتي مـــا عَـــرَف
وقـــال: الشـــهود علـــى المـــدَّعي وأمـــا أنـــا فعلـــيَّ الحَلَـــف(1)

وله في المعنى نفسه، حين روي عنه أنه تأخر به الخروج إلى تلامذته فطال بهم الكلام والمذاكرة، فقال أحدهم نصف بيتٍ، وكان فيهم وسيمٌ من أبناء الأعيان وكان ابن الفراء كثير الميل إليه، فلما خرج، قال له: يا أستاذُ، عملتُ نصفَ بيتٍ وأريدُ أن تتمَّه، فقال: ما هو؟ فقال: ألا بأبي شادنٌ أو طفُ

فقال ابن الفراء استاذه بديهةً: **(من المتقارب)**

إذا كـــــان وردك لا يقطـــــف وثغـــــر ثنايـــــاك لا يرشـــــف
فـــأيُّ اضـــطرار بنـــا أن نقـــول: الا بـــأبي شـــادنٌ أو طـــف؟(2)

وقد علّق الدكتور حسين يوسف خريوش، على هذين البيتين بقوله (وحتى نتمثل الدور الايجابي في "فسيولوجية الفكاهة" نذكر أن التحول المفاجئ في سلوك الإنسان، يقود في العادة إلى الضحك، وهذه التحولات المفاجئة من سياق إلى سياق آخر في مجرى الشعور، يكون نتيجة عضوية تحكمها العادة والغفلة والذهول والنسيان، وهذه كلها من "فسيولوجية الفكاهة")(3).

ومن الشعراء المكفوفين الساخرين في الأندلس، أبو عبد الله محمد بن الصفار القرطبي(4)، فقد قال ساخراً من أبي العلاء(1) - الذي أباح دمه – مادحاً ابن أخيه

بالصلاح والفضل والزهد. تنظر ترجمته: زاد المسافر: 141؛ بغية الوعاة: 208/1؛ نفح الطيب: 382/3-387.

(*) الدنف: المرض الملازم. الصحاح: دنف.

(1) نفح الطيب: 3/ 383.

(2) نفح الطيب : 3/ 382.

(3) أدب الفكاهة الأندلسي، دراسة نقدية تطبيقية، د. حسين خريوش، مطابع الدستور التجارية – عمان: 18.

(4) أبو عبد الله محمد بن الصفار الأعمى الزمن القرطبي، من بني الصفار، المنتمين إلى بني مغيث مولى بني أمية وهو بيت عظيم بقرطبة كان أعمى معطل اليدين والرجلين شنيع الخلقة، لا يزال لعابه يسيل ووجه يهتز، إذا جاذبته أهداب الآداب رأيت منه بحراً زاخراً، وتوفي ضحى

يحيى بن الناصر[2] الذي نازعه رداء السلطان: **(من البسيط)**

وإن ينازعكَ في المنصور ذو نسبٍ فنجلُ نوح ثَوى في قسمة العطَب
وان يقل أنا عمٌّ فالجواب له عمُّ النبيِّ بلا شكٍّ أبو لهبِ[3]

ونفهم مما تقدم أن ابن الصفار كان مناصراً ليحيى في فارس ضد عمه المستنصر لذا استخدم سلاح الهجاء والسخرية إزاء خصمه ليقلل من قيمته، ويثبت لممدوحه موقفه النبيل، اعتقد الحق والخير بوجوده، فدعته سخريته إلى بيان رأيه السياسي بعنف وصلابة على الرغم من كونه أعمى مشوهاً، وقد أدى به هذا الموقف إلى إباحة دمه[4].

يوم الأربعاء الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة 639 من الهجرة. تنظر ترجمته: التكملة لكتاب الصلة: 2/143-144؛ المغرب: 1/117-119؛ نفح الطيب: 2/199-120؛ موسوعة شعراء الأندلس: 183.

(1) المأمون أبو العلاء المستنصر (ت 630هـ) (نفح الطيب: 4/ 384).

(2) يحيى بن الناصر بن المنصور (ت 633هـ) (نفح الطيب: 4/ 384).

(3) المغرب: 1/ 118؛ النفح: 2/ 120.

(4) ينظر: المغرب: 1/ 117 – 119؛ الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس: 252 – 253.

أما محمد بن عبد الله المعروف بابن الأصفر[1]، فقد سخر من جهور[2] بقوله:

بقوله:

(من الطويل)

وإنـــي امـــرؤ أســـتغفر الله كلمـــا هجوت امرأ إلاَّ أبا الحزم جهورا[3]

لقد استهان ابن الأصفر بجهور واستخف به، إذ جعل باب السخرية فيه حلالاً والسخرية من باقي البشر حراماً. ولم يحاول ابن الأصفر أن ينكر وجود غريمه إطلاقاً، ولكنه يحاول الإقلال من شأنه.

وكان بالأندلس وزير قد استناب في ضياعه ثلاثة رجال كواسج عور العيون ولمـــا دخلـــوا أنكـــروا علـــيهم بعـــض أمـــورهم، وألـــوى عـــنهم، فكتـــب إليـــه يقول: **(من البسيط)**

لله أنـــت فقـــد أحســـنت مـــا شـــينا أعطيتنـــا كرمـــا أقصـــى أمانينـــا
وإنهـــــم لمســـــاكين سواســـــية والله أوصـــاك أن تعطـــي المســـاكينا
إن الكواســـجة العـــور العيـــون أتـــوا وأنـــت تـــزورّ عـــنهم حـــين يأتونـــا
أدوا عشـورك واسـتبقوا علـى وجـلٍ ولـــيس عنـــدهم شـــيءٌ يؤدونـــا[4]

لقد ضمن ابن الأصفر سخريته شيئاً من المديح ليدخل السرور والفكاهة على قلب ممدوحه، مظهراً عيوب أولئك العور، (فهو يسر أن يكون الناس كلهم نقصاء

(1) محمد بن عبد الله أبو عبد الله المكفوف الأندلسي المعروف بابن الأصفر، كان مقيداً للقرآن والشعر والنحو، وكان حظه من علم النحو متوافراً، وكان له في علم الكلام تقدم وبصر بمعاني الشعر، وكان له شعر، وهو بذيء اللسان شديد النيل من الأعراض، وكان مقامه باشبيلية، ثم رحل إلى قرطبة فسكنها حتى توفي بها (لم اعثر على سنة وفاته في المصادر). تنظر ترجمته: إنباه الرواة: 3/ 162.

(2) هو الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور. ينظر: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان الأندلسي (ت 529هـ)، تحقيق د. هدى شوكت بهنام، دار الغصون – بيروت، ط1، 1989م: 14.

(3) إنباه الرواة: 3/ 162.

(4) إنباه الرواة: 3/ 162.

ليساووه في النقص، ويخلوا دونه فهو أبداً يتتبع معايب – الآخرين – ويعيرهم بها، ليرى الناس أنه أفضل ممن فيه ذلك العيب، ويشعر نفسه أيضاً ذلك لتطيب بما فيه من العيوب)[1].وهكذا وجد الشعراء المكفوفون في السخرية ملاذاً فيه تعزيتهم، وخلاصهم وتحقيق وجودهم ولمّ شتاتهم والدفاع عن أنفسهم إن لم يكونوا مهاجمين ساعين بذلك إلى توفير الأمن لأنفسهم والحماية من القسوة والاستهانة والاضطهاد.

(1) فلسفة الأخلاق، محيي الدين ابن عربي (ت 560 هـ)، دار البصري – بغداد، 1968م: 53.